عنوان المقياس: علم البلاغة

المحاضرة رقم 02

نشأة البلاغة العربية

البلاغة كغيرها من العلوم الإسلامية لم تكن وليدة ساعة أو يوم، وإنما مرت بمراحل عديدة حتى اكتمل نضجها علما مستقلا قائما بذاته له قواعده وقوانينه.

تمهيد: البلاغة في العصر الجاهلي والإسلامي

عُرف العرب بالفصاحة والبلاغة وحسن البيان وقد بلغوا في الجاهلية درجة رفيعة من البلاغة والبيان، وقد صوّر القرآن الكريم ذلك في آيات عديدة منها قوله تعالى:وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ البقرة .(204) كما وضه الله تعالى شدّة قوتهم في الجدال والحجاج، يقول: وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ الزخرف الآية 58. ومن أكبر الدلائل على أنهم بلغوا في البلاغة درجة عالية رفيعة أن كانت معجزة الرسول وحجته على نبوته القرآن الكريم، حيث دعاهم إلى معارضته وتحدهم أن يأتوا في بلاغته الباهرة، يقول تعالى :وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ البقرة الآية 23. وهي دون شك دعوة تدل بوضوح على تمكنهم ورسوخ قدمهم في البلاغة والبيان.

وهذا يعني أن العرب في جاهليتهم كانت لديهم ملكة فنية أو فطرة لغوية استطاعوا من خلالها معرفة الكلام وتمييز جيده من رديئه. لكن البلاغة في العصر الجاهلي لم تكن علما قائما ومدروسا، وجاء التحول في العصر الإسلامي مع نزول القرآن الكريم، ظهرت البلاغة بمفهومها الإعجازي. حيث إن القرآن جاء بأسلوب لغوي فاق قدرات العرب، فكان التحدي البلاغي أحد أوجه إعجازه، وفي هذه المرحلة (القرن 1 و2 للهجرة) بدأ العلماء يهتمون بـبلاغة القرآن: نظمه، بيانه، تشبيهاته، مجازه، وظهر ما يُسمى بإعجاز القرآن، كمحور أول لعلم البلاغة.

عوامل نشأة البلاغة العربيّة:

لقد ارتبطت نشأة البلاغة بعوامل عديدة، إلاّ أنّنا نفتقر إلى تحديد دقيق لهذه النشأة، لكن ممّا لا مراء فيه أن هناك ملاحظات بلاغيّة مبسترة أخذت طريقها إلى الظهور منذ العصر الجاهلي ويمكن إجمال عوامل هذه النشأة في ثلاث نقاط: الشّعر-نزول القرآن –تقعيد اللّغة.

الشعر:باعتباره من أبرز خصائص الحضارة العربيّة ومدخلا ضروريا لدراستها، وأنّه قلّما نصادف في تاريخ الإنسانيّة الطويل قوما اهتموا بأدبهم اهتمام العرب بشعرهم، وعليه كانت

للشاعر مكانة عالية، ولم تقتصر وظيفة الشعر على هذا فقط فبه عبّروا عن مختلف العواطف والأحاسيس التي تخالجهم وعن طريقه كانوا يؤثّرون في غيرهم ويحمّلونهم على الحماس ويغرسون فيهم أخلاقهم ويدلونهم على حسن الشيم.

والشيء الذي لا نشكّ فيه هو أنّ العرب كانوا مدركين ولو عن طريق الانطباع والفطرة لجملة من خصائص الشعر النوعيّة، ولا سيما ما يتعلّق بأهميّة البعد اللّغوي فيه والتي يتشكّل حسبها هذا البعد حيث لا يتأتى لكلّ واحد منهم أن يكون شاعرا إلاّ بتوفر سلسلة من الشروط، منه فالملاحظات البلاغيّة أخذت تسوغ طريقها منذ العصر الجاهلي، ونموذج ذلك النابغة الذبياني بحيث كان الشعراء يحتكمون إليه، ومن أمثلة هذا تنبيه الذبياني حسان بن ثابت إلى عدم مناسبة الصيغة الصرفيّة (جفنات) للمعنى الذي يودّ التعبير عنه وهو الكثرة حيث قال حسان بن ثابت:

لنا الجفنات الغرّ يلمعن بالضحى

وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بني العنقاء وابني محرق

وأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنا

فقال له النابغة: "إنّك لشاعر حقا لو قلّلت عدد جفانك، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك، إنّك قلت الجفنات فقلّلت العدد ولو قلت الجفان لكان أكثر"

هذه الرواية وغيرها تدلّ على بداية الوعي بضرورة انطلاق الأحكام من الشعر نفسه بالنظر إلى خصائص لغته والاقتناع بأنّ الألفاظ وإن كانت من نفس الحيّز فإنّ بعضها ألصق بالموضوع من بعضها الآخر وأكثر ملاءمة لمعناه الذي قصده الشاعر، ومن هنا أتت ضرورة التفكير فيها واختيارها طبق الغرض.

نزول القرآن الكريم: الذي كشف بنوره فصاحة أرباب الفصاحة وبعث بيانه فيهم إحساسا قويا بالعجز عن محاكاته مع كونهم على البيان مفطورين، من دلائل الأثر الحاسم الذي تركه القرآن الكريم في البلاغة العربيّة، تلك المصنفات الثريّة التي اتّخذت من بلاغة القرآن مجالا لها، مثل "مجاز القرآن " لأبي عبيدة، و"معاني القرآن" للفراء، و"نظم القرآن" للجاحظ، و"دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني،...إلاّ أنّه ومن الملاحظ أنّ حركة التأليف حول البلاغة بدأت مع نهاية القرن الثاني هجري وبداية القرن الثالث هجري، فلا نكاد نعثر على أثر لمؤلّف في البلاغة العربيّة قبل هذا التاريخ.

تقعيد اللّغة:

رغم أنّه ومبدئيا يبدو أن لا التقاء بين وظيفة النحو ووظيفة البلاغة، فالأوّل يحاول استخراج مبادئ اللّغة ونظمها استنادا إلى الاستعمال المشترك، وغايته القصوى حماية اللّغة من الفساد

والحرص على أن تواصل أداء وظيفتها الأصليّة: الإبلاغ ووسيلته في ذلك ضبط المعايير التي نفصل بها بين الخطأ والصواب ويطابق المتكلّم باحترامها بينها وبين حاجاته في التعبير المستقيم.

أمّا البلاغة فوظيفتها وصف الطرق الخاصة في استعمال اللّغة وتصنيف الأساليب بحسب تمكّنها في التعبير عن الغرض تعبيرا يتجاوز الإبلاغ إلى التأثير في المتكلّم وغايتها مدّ المستعمل بما تعتبره أنجع الطرق في بلوغ المقاصد.

يبدو جليا من خلال ما سبق أنّ حركة جمع وتقعيد اللّغة عند العرب، تكتسي أهميّة خاصة لما ألمّ بها من ظروف ساعدت على ربط الصلة بين العمل النحوي والعمل البلاغي واضطرّت اللّغويين إلى التعرّض إلى جملة من المسائل التي أُلحقت في وقت متأخّر بالبلاغة بينما كانت مؤلّفاتها شديدة الصلة بالنّحو ممتزجة به.

أهداف البلاغة

علم البلاغة في اللغة العربية ليس مجرد ترف لغوي أو علم نظري، بل هو أحد أرقى أدوات التعبير وأعظم وسائل التأثير، وله قيمة أدبية وجمالية عالية، ظهرت بوضوح في الشعر، والخطابة، والقرآن الكريم، والنثر الفني.

كما أن أهمية العربية استنبطت من القرآن الكريم لفهم حلاوة معانيه، ومقاصده، وبيان أسراره وأحكامه، وأخباره، وتفسير آياته الكريمة ومعرفة ما فيها من براعة وعذوبة في اللفظ والتراكيب البلاغية، فهذا العلم يعتبر الوسيلة لمعرفة إعجاز القرآن الكريم لذلك يؤدي الإغفال عنه إلى عدم إدراك إعجاز النظم القرآني، وبالتالي لابدّ من الإلمام بقواعد علم البلاغة التي تجعل الإنسان فصيحا ومتكلما بلسان بليغ.

أما القيمة الأدبية لعلم البلاغة، فتتمثل في:

- **أداة لصناعة النص الأدبي المؤثر**: البلاغة تمنح الكاتب أو الشاعر القدرة على تشكيل اللغة بأسلوب فني رفيع. وتُمكّنه من صياغة المعاني بطريقة تمسّ وجدان المتلقي وتؤثّر فيه نفسيًا وعاطفيًا. مثل قول المتنبي:
إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ====وإن أنت أكرمت اللئيم تمرّدا

هنا البلاغة ليست فقط في المعنى، بل في تركيب الجملة، والمقابلة، والوزن، مما يعطي البيت عمقًا أدبيًا وبُعدًا إنسانيًا.

-**تميز الأسلوب الأدبي الراقي**: الفرق بين الكلام العادي والكلام الأدبي هو البلاغة. النص الأدبي يُقاس بقدرته على التجميل والتأثير والإيحاء، وهو ما توفّره علوم البلاغة. والبلاغة تمنح الكاتب القدرة على الإيحاء لا التصريح، وعلى الإيجاز لا الإطناب، وعلى التحليق لا التسطير.

وتتمثل القيمة الجمالية للبلاغة في:

-التصوير الفني للمعاني (من خلال علم البيان): البلاغة تُحوِّل المعنى الذهني المجرّد إلى صورة فنية مرئية محسوسة، فمثلًا: الاستعارة والتشبيه والكناية تُعطي حياة وجمالًا للمعنى. خذ قوله تعالى: [**فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ الرعد الآية 17.**

صورة مدهشة لمعنى فلسفي: الباطل مثل الزبد يذهب، والحق يبقى. وهذا مثل ضربه الله للحق والباطل، والإيمان به والكفر. هذه صورة بيانية فنية تحمل قيمة جمالية عالية، وليست مجرد بيان منطقي.

- تنويع الأسلوب وتجنب الرتابة (علم البديع)

البلاغة تضيف عناصر فنية الجناس والطباق والمقابلة والسجع، هذه الزينة الأسلوبية تُضفي على الكلام جرسًا موسيقيًا وجاذبية لفظية تُمتِّع الأذن والعقل معًا.

وللبلاغة قيمة عقلية وفكرية، فهي: تُنمّي الذكاء اللغوي، وتدرّب العقل على الربط بين المعاني والصور. وتُعزّز المهارات الخطابية والقدرة على الإقناع والتأثير في الآخرين، فالبلاغة في فن الإقناع. تُعلِّم كيف يُقال الكثير بالقليل، أي الإيجاز، وكيف يُفهم السياق والمقام.

تطور البلاغة العربية

البلاغة كغيرها من العلوم الإسلامية لم تكن وليدة ساعة أو يوم، وإنما مرت بمراحل عديدة حتى اكتمل نضجها علما مستقلا قائما بذاته له قواعده وقوانينه.

1. البلاغة في العصر الجاهلي والإسلامي

عُرف العرب بالفصاحة والبلاغة وحسن البيان وقد بلغوا في الجاهلية درجة رفيعة من البلاغة والبيان، وقد صوّر القرآن الكريم ذلك في آيات عديدة منها قوله تعالى: [وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ البقرة .(204) كما وضه الله تعالى شدّة قوتهم في الجدال والحجاج، يقول: و[ۚقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ الزخرف الآية 58. ومن أكبر الدلائل على أنهم بلغوا في البلاغة درجة عالية رفيعة أن كانت معجزة الرسول ρ وحجته على نبوته القرآن الكريم، حيث دعاهم إلى معارضته وتحدهم أن يأتوا في بلاغته الباهرة، يقول تعالى: [وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ

صَادِقِينَ﴾ البقرة الآية 23. وهي دون شك دعوة تدل بوضوح على تمكنهم ورسوخ قدمهم في البلاغة والبيان.

وهذا يعني أن العرب في جاهليتهم كانت لديهم ملكة فنية أو فطرة لغوية استطاعوا من خلالها معرفة الكلام وتمييز جيده من رديئه. لكن البلاغة في العصر الجاهلي لم تكن علما قائما ومدروسا، وجاء التحول في العصر الإسلامي مع نزول القرآن الكريم، ظهرت البلاغة بمفهومها الإعجازي. حيث إن القرآن جاء بأسلوب لغوي فاق قدرات العرب، فكان التحدي البلاغي أحد أوجه إعجازه، وفي هذه المرحلة (القرن 1 و2 للهجرة) بدأ العلماء يهتمون بـبلاغة القرآن :نظمه، بيانه، تشبيهاته، مجازه، وظهر ما يُسمى بإعجاز القرآن، كمحور أول لعلم البلاغة.

2. البلاغة الـتأسيس والتطور

بدأ التأليف في علوم البلاغة مع بداية التأليف في العلوم الإسلامية في منتصف القرن الثاني للهجرة، وقد مرت البلاغة عبر رحلتها الطويلة بثلاث مراحل، هي:

1.2. النشأة والتطور

نزل القرآن الكريم ليكون هدية ودستور حياة يهدي للتي هي أقوم وليكون معجزة للعالمين ودليلا على صدق نبوة الرسول ρ وكان المسلمون في عصر صدر الإسلام يعتمدون على طبعهم الأصيل في معرفة وإدراك إعجاز القرآن الكريم، كما كانوا يعتمدون على طبعهم وذوقهم السليم في معرفة ضروب الكلام وتفضيل شاعر على آخر.

ثم انتشر الإسلام واتسعت رقعة الدولة الإسلامية وكثر عدد الداخلين في الإسلام أخذت هذه العناصر تمتزج بالعرب امتزاجا قويا كان له أثره الكبير على اللغة العربية حيث أخذ الذوق العربي ينحرف وبدأت الملكات تضعف والإحساس ببلاغة الكلام يقل. وفشا اللحن على الألسنة. حينئذ ظهر العلماء فقاموا بوضع قواعد النحو والصرف، يدفعهم إلى ذلك حرصهم على لغة القرآن الكريم فظهرت لذلك كتب عديدة اهتمت بالعربية، إضافة إلى الإشارة إلى بعض الملاحظات البلاغية التي كانت مبثوثة في تضاعيف هذه الكتب وبذلك بدأت البلاغة رحلتها، ومن أهم هذه الكتب:

مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت 210 هـ)، وهو كتاب في التفسير أكثر منه في البلاغة، لكنه في معرض تفسيره للقرآن الكريم نثر بعض الملاحظات البلاغية وأشار إلى بعض مسائلها كالإيجاز والإطناب والتقديم والتأخير دون تسميتها، كما أشار إلى خروج بعض الأساليب الإنشائية عن دلالتها الأصلية إلى بعض المعاني كالاستفهام والنهي والأمر، كما تحدث عن التشبيه والمجاز العقلي من غير تسمية له، إنما أشار إلى بعض شواهد والتي

أفاد منها البلاغيون فيما بعد. ثم جاء الفراء (ت 207) ووضع كتابه "معاني القرآن" ، ويتشابه كتاب الفراء بكتاب أبي عبيدة، غير أن ثقافة الفراء النحوية طغت على الكتاب.

جاء القرن الثالث للهجرة فكثرت الفرق الكلامية الإسلامية، واشتد الخلاف بينها، أخذ الإسلام وكذلك العرب يواجه بحملة تشكيك وطعن، واتجهت الأنظار نحو القرآن الكريم ترميه باللحن وفساد النظم فانبرى العلماء يدافعون عن العرب والإسلام، ومن بين هؤلاء المدافعين الجاحظ، الذي ألف كتابه البيان والتبيين الذي دافع فيه عن العرب ضد الشعوبيين، وفي هذا الكتاب أشار إلى بعض الفنون البلاغية كالاستعارة والتشبيه والكتابة والإيجاز والإطناب.

وعرف البيان بقوله: "اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجب دون الضمير". كما أشار إلى أن البديع من خواص العرب، ومنه الاستعارة والتشبيه والكناية، كما ذكر موضوعات، أخرى كبراعة المطلع والسجع والاقتباس وغير ذلك.

وهذه الفنون البلاغية التي ذكرها الجاحظ مبثوثة في تضاعيف الكتاب لا توجد إلا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير لكتاب البيان والتبيين. والجاحظ من أهم العلماء الذين أسهموا في وضع أسس البلاغة في بداياتها.

ابن قتيبة في كتابه تأويل مشكل القرآن: من تلاميذ الجاحظ ألف كتاب تأويل مشكل القرآن رد فيه على الطاعنين في لغة القرآن وأسلوبه. وقد تحدث فيه عن العرب وما خصهم الله به من قوة البيان، وتحدث عن وجوه إعجاز القرآن، كما أشار إلى المجاز والاستعارة والقلب والاختصار في الكلام والزيادة فيه، والكناية ومخالفة ظاهر اللفظ معناه. ويتميز ابن قتيبة عن سابقيه أنه وضع لكل لون من هذه الألوان بابا يخصه. ويبحث في ذلك أدبي ليس فيه التقسيم تحديد المصطلحات.

ابن المعتز في كتابه البديع: يحمل كتاب البديع قيمة كبيرة في تاريخ البلاغة إذ كان خطوة في تطورها وتقدمها، فقد استقل بذكر أنواع بذكر أنواع البديع، والبديع عنده يختلف عما عرف لدى المتأخرين من علماء البلاغة، أنه علم يعرف به وجوه تحسين الكلام، وإنما كان البديع عنده يشمل كثيرا من فنون البلاغة كالاستعارة والتشبيه والكناية والمطابقة والجناس، وقد دعاه إلى تأليف الكتاب تعريفه الناس أن المحدثين من الشعراء لم يسبقوا إلى شيء من هذه الفنون المتقدمين، وهي الفنون التي جاءت في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. وقد قسم الكتاب قسمين: الأول البديع وحصره في خمسة فنون، هي: الاستعارة، التجنيس، المطابقة، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها، والمذهب الكلامي. الثاني هو قسم تناول فيه ابن المعتز ما أسماه بـ"محاسن الكلام" وهي الالتفات اعتراض الكلام، الرجوع حسن الخروج من معنى إلى معنى، تأكيد مدح بمشابهة الذمّ تجاهل العارف، هزل يراد به الجدّ، حسن التضمين، التعريض والكناية، حسن الابتداء وحسن التشبيه، يقول ابن المعتز" ونحن الآن نذكر بعض محاسن الكلام والشعر ومحاسنها كثيرة لا ينبغي للعالم أن يدعي الإحاطة بها".

ثم جاء قدامة بن جعفر (ت 337 ه) في كتابه "نقد الشعر": وهو كتاب نقدي وبلاغي، تعرض فيه إلى علوم الشعر وأولاها العناية. من بين المباحث البلاغية تحدث عنها قدامة في كتاب نقد الشعر الأسلوب والمعاني، فهو يُركّز على العلاقة بين المعنى واللفظ، ويرى أن الشعر الجيد يجمع بين: اللفظ الجيد :الفصاحة، الجرس، التناسب. والمعنى الجيد :الطرافة، الصدق، المناسبة للغرض الشعري. هذا يُعد من مباحث علم المعاني، وإن لم يستخدم مصطلحات "خبر، إنشاء، تقديم، تأخير..." التي ظهرت لاحقًا عند البلاغيين. وتناول مباحث علم البيان وهي التشبيه والاستعارة، أشار إلى الاستخدام المجازي للألفاظ، وإن لم يستخدم مصطلح "استعارة" صراحة كثيرًا، إلا أن حديثه عن "نقل الكلام عن مواضعه الأصلية" يشير إلى الاستعارة البلاغية.

والمحسنات البديعية كالطباق والجناس والسجع، ولكنه لم يفصل في هذه المحسنات كما فعل البلاغيون اللاحقون (كالقدامى مثل ابن المعتز، أو اللاحقين مثل السكاكي)، بل اكتفى بذكرها كمظاهر لتحسين الشعر دون إسراف.

ثم ظهرت كتب لاحقة، تناولت كثير من المباحث البلاغية، منها كتاب الموازنة بين البحتري وأبي تما وكتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني، وكتب أخرى مثل سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي، وإعجاز القرآن للبقلاني، والنكت في إعجاز القرآن للرماني والعمدة لابن رشيق القيرواني، وغير ذلك.

2.2. نضج البلاغة واكتمالها:

اكتمل صرح البلاغة العربية على يدي عبد القاهر الجرجاني الذي وضع نظريتي علم المعاني وعلم البيان في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، فقد جمع العلامة عبد القاهر الجرجاني ما تفرق قبله من علوم البلاغة، واستطاع بذكائه وثاقب نظره وضع قواعد البلاغة وبناء صرحها على أساس متين من الأصول والقوانين التي استقرت بشكل متكامل وفي إطار شامل مدعما ذلك بالشواهد والأمثلة التي ساقها في بيان عذب وأسلوب بليغ، فلم يكتف عبد القاهر في كتابيه بتقعيد القواعد وتقنينها، بل حرص على ضرب الأمثلة حتى تتضح فنون البلاغة حق الوضوح وتتمثل في الأذهان خير تمثل.

ولقد فتن البلاغيون بعبد القاهر وعمله الغزير فراحوا يرددون كلامه ويقفون عنده ولا يتجاوزنه وأصبح لكتابيه مكانة مرموقة جعلت كل من جاء بعده يعتمد عليها ويقتبس من مسائلها ويدور في فلكها لا يحيد عنها.

ثم جاء الزمخشري (ت538ه) الذي قان بدراسة ما كتبه عبد القاهر في كتابيه، واستطاع أن يهضم ما فيهما ويتمثلهما خير تمثيل وأن يطبق ذلك كله في كتابه "الكشاف" الذي اهتم فيه ببيان الأسرار البلاغية في القرآن، بإظهار إعجازه عن طريق بيان وفاء دلالته على المراد مع مراعاته مقتضيات الأحوال ويكشف ما فيه خصائص التصوير ولطائف التعبير في بيان

القرآني. وعلى الرغم من أن هذا الكتاب يعد من كتب التفسير فإنه يعد في الوقت نفسه من كتب البلاغة لأنه مليء بمسائلها ولطائفها.

3.2. مرحلة التقنين والتعقيد

تبدأ هذه المرحلة بظهور أبي يعقوب السكاكي (ت 626 ه) الذي اهتم بالفلسفة والمنطق، فقام بتقنين قواعد البلاغة مستعينا في ذلك بقدراته المنطقية على التعليل والتعريف والتفريع والتقسيم، وبذلك تحولت البلاغة على يديه إلى مجرد قواعد وقوانين صيغت في قوالب منطقية جافة باعدت بينها وبين وظيفتها من إرهاف الحس وإمتاع النفس وتربية الذوق وتنمية الملكات، وشهرة السكاكي تعود إلى قسم الثالث من كتابه مفتاح العلوم الذي جعله لعلم المعاني وعلم البيان وملحقاتها من الفصاحة والبلاغة، والمحسنات اللفظية والمعنوية، وقد نال هذا الكتاب شهرة في ميدان البلاغة حيث فتن به العلماء إلى حد جعلوه ينسون أنفسهم وينكرون ملكاتهم، ولهذا ظلوا قرونا عديدة –ابتداء من القرن السابع الهجر وإلى القرن الماضي-عاكفين على دراسته وشرحه وتلخيصه حتى لكأنه لم يؤلف في البلاغة كتابا غيره، فاستأثر باهتمامهم وعنايتهم.

وقد أخذ رجال هذه المدرسة وعلماؤها يعمدون في دراساتهم البلاغية على النظريات والتقسيمات والقواعد والتعريفات التي أصبحنا نراها شائعة في مصنفاتهم من الشروح والحواشي والتقارير ونحوها التي صنفت على هدي كتاب السكاكي والقزويني.

قام عديد العلماء القدامى بشرح وتلخيص كتاب مفتاح العلوم لسكاكي منهم الشيرازي (ت 710 ه) وأبرز من لخصه الخطيب القزويني (739 ه) وسماه تلخيص المفتاح وهو أشهر هذه الشروح بين علماء المشرق والمغرب، والكتاب بدوره حظي باهتمام العلماء وهناك من شرحه ومن لخصه ومنهم من نظمه، منهم بهاء الدين السبكي في كتابه "عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح"، وكذلك سعد الدين التفتازاني وضع له شرحين المختصر والمطول. وممن نظمه شعرا جلال الدين السيوطي (ت 911) في كتابه "عقود الجمان، وعبد الرحمان الأخضري في كتابه "الجوهر المكنون في الثلاثة فنون" وغيرهم كثير.

فكل من جاء بعد السكاكي سار على نهجه ومنواله، لأنها لا تخرج عن كونها ترديدا وتكرارا لمادته، فهي محاولات قصد التبسيط والتوضيح عن طريق الإيجاز والتلخيص.

وإذا أرادنا أن نقارن ما كانت عليه البلاغة العربية في عصورها الزاهية وخاصة في عصر عبد القاهر الجرجاني وبين ما صارت عليه في العصور المتأخرة نرى أن البلاغة ازدهرت واكتملت وتوهجت شعلتها على أيدي علمائها الأوائل الذين قاموا بإحيائها وإرساء معالمها، ثم نرى كيف جفت وذبلت وخبت شعلتها على أيدي علماء البلاغة المتأخرين، على يد السكاكي ومن سار على نهجه واحتذى حذوه.